

## الإنسان في فلسفة الفارابي\*

قيس جواد العزاوي\*\*

قليلة هي الكتابات الفلسفية الجادة التي تضيف جديداً لمباحثنا المعرفية الأصيلة. ويمكنني أن أقول بكل ثقة: أن الحظ قد حالفني وأنا أطلع على بعض هذه الكتب الصادرة في المغرب ومصر ولبنان في السنوات الثلاث الأخيرة، ومنها كتاب الدكتور إبراهيم العاتي عن "الإنسان في فلسفة الفارابي"، وأنه إلى كم تفتقر حياتنا الثقافية لكتابات جادة حول مبحث الإنسان ومحبث التاريخ! فتلك مباحث تغنى الفكر بمشاغل العصر وتؤصله.

ويظهر الإنسان جلياً متألقاً لدى إخوان الصفا في تقسيمهم الرباعي للحكمة: منطق وطبيعيات وإلهيات ونفسانيات. ويتجسد الإنسان بوصفه مبحثاً مستقلاً في الرسالة الثالثة "من النفسانيات العقليات" في قول الحكماء: إن العالم إنسان كبير، وقولهم: "إن الإنسان عالم صغير". ومع ذلك يبقى مبحث الإنسان لدى قدماء المسلمين محدوداً.

وكان اختيار مبحث الإنسان لدى المعلم الثاني الفارابي اختياراً موفقاً جداً، فالفارابي كما يذكر إبراهيم العاتي خصّ الإنسان باهتمامه ليس بوصفه حقيقة فردية فحسب، وإنما بوصفه حقيقة اجتماعية تبحث في علاقة الإنسان مع الآخرين. وعلى الرغم من ضياع أغلب تأليف الفارابي، بل أن البعض يرى أن ما هو مطبوع منها لا يتطابق مع نظرياته، فقد راجع الكاتب أغلب المطبوع والمخطوط من تأليفه لكي

\* د. إبراهيم العاتي، الإنسان في فلسفة الفارابي (بيروت: دار النور، 1998).

\*\* دكتوراه في التاريخ من جامعة السربون (1992) باحث ومحرر مقيم في باريس، ورئيس تحرير مجلة دراسات شرقية.

يتناول مبحثه بموضوعية وعين ناقده لاحظناها في كل معاجلاته، حيث اتبع العاتي منهج التحليل المقارن للكشف عن مصادر التأثر والتأثير والجدة والإبداع بين ما جاء به الفارابي، وما أورده الفلاسفة اليونانيون وال المسلمين.

بحث الكاتب في حياة الفارابي وتكوينه الروحي والثقافي فوجدها مكونات إسلامية أولاً، ولم تؤثر اطلاعاته على فلسفات الأمم على هذه المكونات، بل على العكس زادته إيماناً وعرفة. إن هذا الفيلسوف المشهور في عهده عمل ناطوراً في بستان بدمشق لكي تتسنى له متعة القراءة في ضوء الفوائض، وكان زاهداً في دنياه منفرداً لا يجالس الناس. وكان من أشهر تلاميذه ابن سينا.

أما مناهج البحث لدى الفارابي، فهي مناهج تتبع بتتنوع مباحثه الفلسفية وتعبر عن مدى الاتساق والارتباط والإحكام في رؤيته للإنسان. فهو يصنف العلوم على أساس عقلية محددة، مبيناً صلة بعضها بالبعض الآخر وموضحاً الخصائص الذاتية المشتركة لكل علم.. ويقوم مذهبة على أساس السعادة التي هي غاية يتшوقها كل إنسان، وهي أكمل غاية، بل هي نهاية الكمال الإنساني، وهي أمر اكتسابي يشترط الحصول عليه توفر الشروط الذاتية والموضوعية.. ونرى أن شاغل التوفيق ما بين الفلسفة والدين قد شكل إحدى اهتمامات الفارابي وهي كثيرة. وفي اعتباره فإن اتفاق الدين والفلسفة يستند إلى أساس معينة وهي:

**الأول: وحدة المصدر ومرد الشريعة إلى الله.**

**الثاني: وحدة الواسطة إذ أن النبي والفيلسوف يستمدان العلم من الله.**

**الثالث: وحدة الموضوع، فم الموضوعات الدين و موضوعات الفلسفة عنده واحدة.**  
وقد كانت محاولة الفارابي هذه نهجاً سار عليه الفلاسفة المسلمين فيما بعد ولعل أبرز من برعوا في التوفيق بين الدين والفلسفة هو ابن رشد الذي كتب كتابه "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال" واعتمد على أفكار الفارابي نفسها.

وتبيّن لنا نظرية العاتي النقدية في تعامله مع الدراسات التي أجريت على فلسفة الفارابي .. فنراه ينتقد الدارسين ويزرر توهماً منهم وتناقضاتهم، فقد رد في الصفحة ١٥ على الدكتور جعفر آل ياسين الذي اعتقد أن الفارابي استخدم في كتابه آراء المدينة الفاضلة منهجه الجدل النازل حينما طبق في السياسة المدنية منهجه الجدل الصاعد.

وأثبت العاتي أن الفارابي استخدم في الكتابين منهج الجدل النازل. فهو يستخدم الجدل النازل في الإلهيات ومنهج الجدل الصاعد في الإنسان والمجتمع.

وفي تناوله لعلاقة الإنسان بالله والعالم، أجرى الباحث مقارنة مهمة بين الفارابي وديكارت في مسائل على شاكلة أن معرفة الإنسان بالله فطرية من غير اكتساب ومنهجه في النزول من معرفة الله إلى معرفة العالم وليس العكس. وفي فصله المتع هذا يرى العاتي أن فلسفة الفارابي تشكل وحدة متماضكة الأجزاء ومحكمة الحلقات ففي البعد الإلهي وجد الفارابي جانبين هما:

جانب منطقي ووضح فيه نظريته عن الواجب والممكن.

وجانب كلامي عرض فيه صفات الله وماهيته وعلاقته بمحلوقاته. وفي البعد الكوني المتمثل بنظرية الفيض والعقول العشرة. وهنا نجد أن الفارابي قد أفرد موقعاً مهماً للإنسان في نظرية الفيض، ساخراً من المنجمين الذين يذهبون إلى أن الكواكب بعضها يجلب النحس وبعضها يجلب السعادة، فالفاعل في عالم الطبيعة هو الإنسان يأتي مباشرة بعد الفاعل الرئيس وهو الله. والفيض في فلسفة الفارابي عملية عقلية أبسطمولوجية جوهرها إدراك الباري لذاته وعلمه بها.

وفي تعقيبه ونقده يجد الكاتب أن أهداف الفارابي في نظرية الفيض تسعى إلى حل إشكاليات عدة مثل: مشكلة الوحدة والكثرة، والقدم والحدث. فينقد رأي كمال اليازجي ويوفس كرم واستنتاجهما القائل: إن الكثرة ما دامت لم تنشأ إلا ابتداءً من العقل المفارق الأول، فإن الله يكون مفتراً إلى العقل الأول ليبدع الكثرة، ويرى أنه إذ لو لاه لم تكن كثرة ذلك، لأن الفارابي أكد على أن الله لا يمكن أن يفتقر في وجوده إلى شيء وهو الموجود الكامل فالعقل جميعها قد اقتبست الوجود من الأول أي أنها مفتقة في وجودها إليه سبحانه.

وفي بحثه في طبيعة النفس وعلاقتها بالبدن يدخل العاتي في صلب مبحث الإنسان عند الفارابي كما يقول. وقد كان الفارابي سباقاً في تحديد معالم علم النفس في الإسلام وتبيان موضوعه. وجعل النفس جوهراً حادثاً، واعتبر في تقرير مصيرها عنصري العلم والعمل، ووصف الحياة الأخرى وصفاً روحانياً، ورتب الشقاء الأبدي في عالم الخلود في مقابل النعيم المقيم. ورفض رفضاً قاطعاً القول بتناصح النفس.

وقسم الفارابي قوى النفس إلى خمس هي: غاذية، وحاسة، ونزوغية، ومتخيلة، وناظفة. وقد تأثر بنظريته هذه ابن سينا. ويرى العاتي التأثير الشديد لفكر الفارابي السياسي على تقسيمه لقوى النفس، فهناك قوى متمايزة يحكم بعضها البعض الآخر ويتحكمها جميعاً عضو رئيس كما في مدتيته الفاضلة، ولكن على الرغم من هذا التمايز فإن هناك وحدة بين قوى النفس. كما يلاحظ أن الفارابي لا يثبت على حال واحد في تقسيمه لقوى النفس فهي تارة خمسة وأخرى أربعة وربما أقل من ذلك.

لقد مهد الفارابي بإحصاء العلوم والمنطق لنظرية المعرفة وعلاقتها بالنفس فإن رأي الفيلسوف يتأسس على مذهبه في النفس. درس الفارابي نظرية المعرفة حيث يتحلى جوهر الإنسان. وقسم المعرفة إلى: معرفة حسية ومعرفة عقلية ومعرفة ذوقية أو إشراقية وهي معرفة متصلة ومتابطة. لقد جعل الفارابي حصول المعرفة في الذهن البشري وكذلك صحتها متوقفاً على العقل الفعال، ذلك أنه سمي فعلاً لأن العقل المستفاد عند الإنسان ينفعل به. ومن هنا يظهر تلاقي نظرية المعرفة عنده بنظريته في الفيض، ويظهر أيضاً التقاء الفلسفة بالتصوف. والإنسان في سعيه للكمال لدى الفارابي لا بد أن يضع العقل الفعال في اعتباره، فهو غايته. ولذلك فإن الإنسان الذي يبلغ تلك المنزلة، ورتبة العقل المستفاد، لا بد أن يتصل بالعقل الفعال بضرب من الاتصال بأنه يكون قد عقله. ومن الملفت للنظر أن الفارابي لا يقصر اليقين على البرهان والقياس، بل يمكن أن يتحقق اليقين بالطبع والتجربة أيضاً. ومع أن الفارابي يتفق مع أرسطو في وجود مبادئ أولية هي بمثابة الأساس للمعرفة اليقينية فإنه مختلف معه في أصل هذه المبادئ. فبدلاً من أن يفسرها بقوة تشبه "الحاسة الطبيعية" عند الحيوان كما فعل أرسطو فإنه يلجم إلى مصدر خارجي هو العقل الفعال لتفسيرها. ويستنتاج الكاتب أن هذا التفسير اتجاه إشراقي يختلف فيه مذهب المعلم الأول أرسطو. وكعادته يعتقد العاتي بعض الدارسين للفارابي فيجد أن د. جميل صليبا يرجح رأي الفارابي في المطابقة بين الصور العقلية وموضوعها الخارجي. وهذا محض استنتاج لأنه يهمل الرأي الوارد في كتاب المسائل الفلسفية والذي يعبر فيه الفارابي عن رأيه في عدم التطابق بين ما هو الذات وبين الموضوع الخارجي.

وعند بحثه "الإنسان في المجال الخلقي" يجد العاتي أن الإنسان في فلسفة الفارابي

ليس كائناً منعزلاً عن دائرة ذاته، وإنما هو في اتصال وتواصل مع الآخرين، وإذا كان مدنياً بالطبع فهو كائن أخلاقي بالطبع وتلك السمة التي تميزه عن الحيوان. ويجد أن الغاية التي يرمي إليها الإنسان في ممارسته للفعل الأخلاقي هي تحقيق السعادة.. فالسعادة غاية وكمال وخير، بل هي أجدى الخيرات وأقربها للنفس الإنسانية. وبناءً عليه نجد أن الفارابي يسوّي في "السياسة المدنية" بين الخير والسعادة ويحلل الفارابي الإرادة والاختيار تحليلًا دقيقاً، ويربطهما بالفعل الأخلاقي، وكأنه يريد أن يضع أساساً سيكولوجياً لهذا الفعل.. فالإرادة قائمة على أساس الإحساس والتخيل بينما الاختيار ناجم عن التفكير والرواية أو القوة الناطقة.

إن الإصلاح الخلقي لدى الفارابي يبدأ من الذات بتعويدها على الفضيلة. وحصلة دارس الفلسفة هي الجمع بين القول والفعل، أو بين النظر والعمل، أو بين الأخلاق النظرية والأخلاق العملية.

وأخيراً يدرس العاتي الإنسان في المجال الاجتماعي لدى الفارابي ويجد أن للفلسفة السياسية مضموناً أخلاقياً، لذلك ارتبطت الأخلاق بالسياسية لدى الفارابي ارتباطاً وثيقاً. وتحقق الأخلاق العملية بإصلاح الفرد وإصلاح الجماعة ولا تقتصر على واحد دون الآخر.. ويرى أن الاجتماع الإنساني ضروري، بل وفطري. ولا يمكن أن ينال الإنسان الكمال إلا باجتماعات جماعة. وأول مرتب الإنسان هو أن يوجد لديه الاستعداد لكي يصير عقلأً بالفعل، وهو ما يشتراك فيه مع الجميع. ولكن حصول العقل بالفعل والعقل المستفاد هما مما يمتاز به الإنسان الفاضل وحده.

واختتم العاتي عمله الفلسفى الممتع هذا باستخلاص القيم الإيجابية للإنسان عند الفارابي وخلص إلى أن هناك ثلاثة أبعاد تحدد تصور الفارابي للإنسان وهي: بعد إلهي وكوني وبعد أبسطولوجى وبعد أخلاقي اجتماعي وسياسي.. وأن الطرق مفتوحة أمام الإنسان لدى الفارابي لاكتساب المعرفة والتسامي إلى الله لنيل السعادة القصوى على صعيد المجتمع حيث يمكن أن تسود الفضيلة وحب الخير وتحقيق السعادة للأفراد والجماعة على حد سواء.

ذلك هو باختصار كل ما جاء به الكاتب في دراسته لمبحث الإنسان في فلسفة الفارابي. وهو عمل جاد وشاق ومفيد لأنه ييسر للدارسين مادة مرجعية مهمة

للتقط الأسس والمبادئ التي حكمت فلسفة الفارابي في هذا الشأن.. وهو عمل اقتصى كما تبين لنا الاطلاع على قدر كبير من مؤلفات الفارابي وخطوطاته غير الحقيقة.. ولكن استطلاعى لمراجع الكتاب قد بين لي أن الدكتور العاتى لم يرجع لكتاب الفارابي الضخم "الموسيقى الكبير" الذى طبع بعنایة الأستاذ لاند وقدمه مؤتمر الشرق السادس بليدين عام ١٨٨٤ . وترجم بأكمله إلى الفرنسية بعنایة البارون دي أرلانجيه سنة ١٩٣٥-١٩٣٠ . وصدر بالعربية بعد أن حققه وشرحه غطاس عبد الملك خشبة وراجعيه وقدم له محمود أحمد حفيظى وصدر عن دار الكتاب العربى بالقاهرة بدون تاريخ.. ويُعدّ من أعظم ما وضع فى الموسيقى العربية منذ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا.. ومن المؤسف له أن ملحق الكتاب الذى تحدث عنه المؤلف فى مقدمته، قد ضاع وفقدنا بضياع هذا الملحق المهم الحديث عن أهم آراء الناظرين من القدماء فى صناعة الموسيقى..

وكلى يقين أن الحديث عن الموسيقى وضخامة ما ألفه الفارابي فيها يمثل جانباً مهماً في فلسفته الإنسانية التي هي كما يذكر المؤلف محور فلسفته كلها. إن المعرفة بعلم الموسيقى وإسهام الفارابي الفريد فيه تمثل إطلالة عميقة عمّا يكتنف النفس البشرية من عمق إلهي وبشرى يعزز مذهب السعادة الذي يتبعه الفارابي.